

أمننا « داكوتا » ! ..

ودنوت من الطائرة أخفصها لخصاً بعينين مأخوذتين مبهورتين وأقسم لو رأيته لحسبته أحد خبراء الطيران ، كنت أدق على المحركات وأخفص الجناح وأنقر بإصبعي على جسم الطائرة أختبره وقد استولى على إعجاب مشوب بالحيرة وفيما كنت مشغولاً باستخباراتي وخصوصي فوجئت مرة أخرى عن انتزعي من تأملاتي انتزاعاً ، ودفعني إلى سلم الطائرة ملقاً نظري إلى قرب تحركها فدلقت فيها ، وقد استولى على نوع من الانبهار العقلي ، فجلست على أول مقعد والاني جلسة المرتبك الفزع وما شعرت إلا والناس من تحتنا ترفع الأيدي ملوحة بالوداع . . .

باللهول . . وتداركت أمري أتبسم للأصدقاء المودعين وألوح لهم . ولكنني ، عجباً ، ما بالي نسيت كل شيء . العالم والطائرة . والسفر . . . لقد انقشع كل هذا من سماء فكري وحل محله شيء آخر ، لم أعد أفكر إلا في أن هؤلاء أصدقاء يودعون أصدقاء . لقد وقعت هذه الكلمة من نفسي موقعاً عجيباً ، إن لها نفحاً سامياً غريباً ، فمن لم يجرب قيمة أصدقائه في نفسه فليركب طائرة وليجعلهم يلوحون له مودعين ، وأنا الزعيم بأن سوف يشعر بذلك الرباط الذي ندعوه صداقة ووداداً وبحس بأن للصداقة أكثر أهمية مما زددته في مجتمعنا غير مكترئين ، وسيرى فيها معاني هي من السمو بحيث يدهش كيف لم يعرفها في حياته العادية التفاتاً . وسيكون شعوره بحب أصدقائه شعوراً حقيقياً قوياً أما إذا لم يشاركني هذا الشعور ، فستبقى أمانى في تفسير هذه الظاهرة علة واحدة هي « الخوف » ، ذلك لأن الخوف يشعر الخائف بإقباله على خطر يتهدهده وإحساس المرء بهذا كاف لأن يدفعه إلى التعلق بالأسباب التي تربطه بالحياة ، وأهم هذه الأسباب في تلك اللحظة هو أقرب ما تتمثل فيه الحياة لديه وأعني بهم أصدقاءه الذين يودعونهم ، وإذن فعلى من أراد تجربة إحساسه بالصداقة والأصدقاء أن يركب طائرة وهو خائف . . .

والتفت إلى رفاق السفر ، وقد انتفى مني الخوف ، فوجدتهم هادئين صامتين كأنما يحاولون التخلص مما استشعروه من حرج بسبب قنبل حالهم ومحلهم ، ولقد كان القوم حقاً خليطاً متنافراً أحسب أن الله تعالى جمعهم ليثبت للإنسان

— ألو . . . أسرع . . إن « داكوتا » على وشك السفر .
— ولكنني لم أستعد ، لقد كنا نظن أن الطائرة لن تأتي قبل أيام
— ولكنها وصلت وهي الآن في انتظار الركاب وسوف تتحرك بعد نصف ساعة . . وستسافر فيها ، أفأهم أنت ؟
— أمري لله

لقد فاجأتني هذه المكالمات التليفونية بمالم أفاجا بمثله من قبل . صحيح أنني كنت أفكر في منغصات الطيران وأخطار الطائرات وحقاً أنني كنت أقول ما قاله عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في البحر « راكبه مفقود والخارج منه مولود » ، وصحيح أيضاً أنني كنت من دعاة السفر بالسيارات أو القطارات وأنني كنت أحرص الناس على ذلك ، مقدراً سوء عواقب السفر بالطائرات ، أخشى على وعلى عباد الله شر احتراق مستودع البنزين ، أو وقوف المحرك ، أو على الأقل مانعانيه الطائرات من جيوب هوائية في الجو . . صحيح كل هذا . . ولكنني لم تكذبك أذن تلك المحادثة التليفونية المزعجة حتى فزعت فزعا حقيقياً حين أصبحت أمام الأمر الواقع — كما يدعونه — لقد أدركت أنني كنت أتصنع الخشية وأتكلفها أما الآن فقد أصبحت تلك الخشية خوفاً ثم انقلب الخوف هلعاً ، ذلك لأنني اقتربت مما كنت أتكلف خشيته ولم أعرف معنى الخوف الحقيقي كما عرفته ذلك اليوم بل تلك الساعة على التجديد ، فلقد استعرضت في مخيلتي مائة حادثة وحادثة قد تعرض لها الطائرة وآمنت بأن لا مندوحة من حدوث واحدة منها على الأقل ، وفيها الكفاية بالقضاء المحتوم . . ولما انطلقت في السيارة إلى المطار كنت أسرح الفكر فيما أنا مقبل عليه من أمرى . طيران ست ساعات من الكويت إلى بيروت رأساً . . . هكذا دفعة واحدة ! . هذا كثير ! إن الخيال السباق في التصور لا يستطيع أن يلاحق هذه الفكرة الغريبة . ولما حاولت أن أستفهم عن عادة وزن الركاب قيل لي أن هذه الطائرة لا يوزن ركابها . . سبحانك اللهم ، وإذا زاد ثقل الركاب على احتمال الطائرة ألا يقع المحذور فقيل لي إن هذه الطائرة تحمل أكثر من عشرين راكباً وإن ركابها في هذه السفرة لا يزيدون على العشرة بما فيهم العبد لله ، وإن هؤلاء جميعهم سيكونون في (ربة) من (ربة)

إذا ما عز على الرجاء ، وعوفى
إذا ما استطارتى الفرح .

الله

الله : ما أحلاها من

كلمة تنفجر عنها الشفاء فتفتح

أمامها أبواب السموات والأرض ...

الله .. الله .. ليتك تنطق يا قلبي فتردها

معي .. كم أرتى لك وأنت جمد لا تحس بما في بهجة
الحياة من لذة وما في أساها من روعة .. وكم أشفق
عليك وأنت أصم أبكم لا تستطيع التسييح باسم الله
الخالق الأعظم شاكرأ له نعمة وجودك ..

ولكن ، أليس في اتخاذك أداة لتسطير مشاعرنا
وتسجيل أفكارنا بما يفرج عن أنفسنا من كرب
وما تفيض به خواطرنا على سنك من خلجات ...
ألا يعد كل ذلك تسييحاً منك باسم الله الأعز
الأكرم ..

عفوأ يا قلبي فقد جحدتك وهضمت حقك ..
لعلك تشعر يا قلبي بما أشعر به الآن ، وما إخالك
إلا مردداً لصدى أفكارى ، مرجعاً لخواطرى ...
ولم لا ؟ .. ألسنت أنت الوسيلة بين ماضى خواطرى
وحاضرها ، بل وبين كل ماضى من خواطر القوم
وما قد يطراً عليها .. وإنك لنعمة من نعم الله
الكبرى . وإن لله لنعم لا تعد ولا تحصى ...

الله .. يا عون المحتاج ويا فرج المكروب ..

الله يا موئل الشقى . الله يا سمد التقي . الله جل جلاله
وعظمت قدرته ملء كل روح وكل قلب .. يغمر
بفيض نوره كل عين ، ويشع بفيض سناه على كل
نفس ، فتشع شعب الهموم وتنطق نيران الآسى ،
ويحل الهناء والسرور أينما حلت النعمة الكبرى ..
نعمة الإيمان بالله والثقة في قدرته .

كلمة ما أنفك أرددها ، ويجرى
بها قلبي كلما بدأت أو انتهيت ،
تدور في فكري ماغدوت وما
سريت ، فتتكرر مع ضربات قلبي
وتسرى سريان دمي . أحس بها
تهز كياني وتستولى على مشاعري ، فتطلق من بين شفتي
عميقة قوية تهز جوانحي ...

الله : معقل إذا ما استبدى الحزن ، وملهمي إذا
ما طار بي الخيال ، ومرشدي إذا ما عصاني العقل ، وموئلي

بين الحين والحين أنه ليس إنساناً وإنما هو إنسانية وما هو فرد
ولكنه عالم . هذا رجل من عليية القوم وأكبرهم اختلط بيننا
في ديمقراطية متناهية وفي بساطة ودون تكلف ، وهذا إنكليزي
أشعر أنه محس بالخرج الكبير لعدم استطاعته مشاركتنا
الحديث وأحسب أنه على استعداد لأن يشتري معرفة لغة
الضاد بثمان عزيز ، وتلك سيدة سورية فاضلة بين يديها طفل
لم يتجاوز عمره أشهر ، أى والله طفل في طائفة لكان الله
يضرب لنا فيه مثلاً تطمئن به قلوبنا ويذهب عنا الخوف .

وأفقت من أفكارى على أحاديث الرفاق وكانت تدور
حول هذا الحر الشديد الذى هبط علينا ولقد أحسست
بضيق في النفس أول الأمر فتزعت معطى . ثم ألقيت
بكوفيقي وفتحت ياقتي ، فلم تجد كل هذه المحاولات فتيلة
لقد أوشكنا على الاختناق حقاً . ولكن الرجل الذى من
عليه القوم طمأننا إلى أن هذا سيزول بمجرد ارتفاع الطائرة
قليلاً ، ولقد صدق وعده فقد خفت وطأة الحر شيئاً فشيئاً
ثم اعتدل جو الطائرة ولطف هواؤه فبعث فينا الرغبة في
الحديث والاستمتاع بما حولنا من مناظر بهيجة رائعة تمر من
تحتنا في هدوء ، متتابعة ، ترى مدينة الكويت وقد صارت
بحجم علبه الكبريت ملقاة على الأرض القاء وكأنها بيوت
الرمال التى يشيدها الأطفال .. ولعل أبهج منظر تراه من
الجو هو شواطئ البحار التى تشعرك أمواجها الهادئة
الساكنة بالطمأنينة وتبعث زرقها الصافية في نفسك
الصفاء ..

« الزهراء »

« كلية الآداب »

فهرس الروبرى

« ابن العاقول »

يتبع